حجاجية الاستعارة بين عبد القاهر الجرجاني وميشال لوجوارن

د. هدى علي نور الدين محمد

مقدمة البحث:

إنّ البحث عن استقرار الأصول العلمية للمجالات المعرفية شغل العديد من المتخصصين والباحثين في تاريخ الفِكْر، وتأصيل العلوم. حيث تُمثّل نظريات الحجاج والبلاغة الجديدة مسارًا له قوانين وقواعد يُحدِّدُها البحث وإعادة النظر والتقديم للمفاهيم التراثية التي تُثبت وتُبرهن بالدليل العلمي على وجود أبعاد حجاجية للاستعارة في البلاغة العربية وبخاصة في النصوص العربية عند عبد القاهر الجرجاني.

موضوع البحث:

تقوم الدراسة على ثلاثة محاور:

- أولاً: تحديد المفهوم الاستعاري في التراث العربي والدرس البلاغي الفرنسي..
- ثانيًا: تحقق حجاجية الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني عن طريق قاعدتين، أولهما: ارتباط تشكُّل الاستعارة بفكرة (المعنى ومعنى المعنى)، ثانيهما: مبدأ الاحتمالية في الذهن.
- ثالثًا: القوة الحجاجية للصورة الاستعارية عند لوجوارن استنادًا إلى خاصية التَّخيُّر الدِّلالي للسمات الدلالية التي يتضمنها القول الاستعاري.

مشكلة الدراسة:

تتمثل أهم إشكاليات البحث في الإجابة عن الطرح الآتي: هل تحمل تطبيقات عبد القاهر الجرجاني وتحليلاته في حجاجية الاستعارة نفس وجهات النظر والمضامين التي يقدمها الحداثيون وبخاصة في بحثا عند ميشال لوجوارن؟.

أهداف البحث:

١- تَمثُّل الأسس الحِجَاجية للظواهر البلاغية، وبخاصة الاستعارية منها في التراث البلاغي بعامة، وعند عبد القاهر بخاصة.

٢- تسليط الضوء على الجديد في محاولة ميشال لوجوارن في حجاجية الاستعارة.

الأسئلة التي يجيب عنها البحث:

- كيف وُظِّفَ مفهوم الاستعارة في النصوص من وجهة نظر البلاغيين العرب، وبخاصة إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني ؟
- ما الأطر العلمية التي تُقدَّم من خلالها النظريات والمفاهيم العربية التراثية في المجالات المعرفية المختلفة بالشكل المُحدَّد الذي يسمح بفهم التّصوُّرات، وفهم خطوط الإضافة والتجديد ؟

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث ومباحثه العلمية اعتماد المنهج الوصفي المقارن بين مدونتين إحداهما تراثية بلاغية، متمثلة في مُصنَّفات عبد القاهر الجرجاني، وبخاصة كتابه "دلائل الإعجاز"، ورصد التصورات النظرية والمفاهيمية وتحليل الرؤى التطبيقية المتعلقة بدرس حجاجية الاستعارة في الصيغ البلاغية المختلفة، ومقارنة ذلك بوصف ما جاء عند ميشال لوجوارن في بحثة الاستعارة والحجاج. والنظر في تحليلاته الدلالية واللغوية والوظيفية المتعددة للنصوص.

تعدُّ الاستعارة من أهم الآليات الرئيسة التي تتشكل من خلالها التعابير اللغوية في النصوص على مختلفة أنماطها.

١. مفهوم الاستعارة فى البلاغة العربية:

الاستعارة: تتحدد دلالتها اللغوية من (أعار) "إعارة الشيء ومن الشيء: أعطاه إياه عارية" اِستعار الشيء من

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

فلانٍ واستعار فلانًا الشيء: واستعاره منه: طلب منه أن يعيره إياه(١). وتتلخص رؤية البلاغيين العرب في معالجة الاستعارة على أنها مجاز لغوي وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني والرازي والسكاكي وغيرهم.

٢. قاعدة المشابهة والتشكيل الاستعاري:

تُفسَّر الأصول المفاهيمية للاستعارة في المُصنَّفات البلاغية والنقدية العربية التراثية انبناءًا على قاعدة المشابهة أو ما يمكن تسميته (علاقة التشابه) (٢)، فالاستعارة تبعًا للرؤية الفكرية البلاغية تنبني أركانها على التشبيه(٣). يقول عبد القاهر الجرجاني: "الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه"(٤)، وهذا التعريف يؤكد على أنها مجاز لغوي وأنها "ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل "وأن التشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبيه بالفرع له أو صورة مقتضبة من صورة"(٥). وعلى الرغم من أن عبد القاهر الجرجاني أقرَّ العلاقة التشبيهية بين الاستعارة والتشبيه كما تدُلنا النصوص السابقة إلا أنه لم يلح على تصييد وجه الشبه الذي يجمع بين طرفي الاستعارات التي تناولها فكان ذلك أصدق وأنسب من الناحية الفنية لبحث الصورة الاستعارة وأنقى من الجمود والتفعيل(٦).

٣. مفهوم الاستعارة (Métaphore) في الدراسات الحداثية البلاغية الفرنسية:

تتلخص التَّصوُّرات المرجعية للاستعارة في الفكر البلاغي الفرنسي على أنها:مجاز يتشكل عبر إحلال معان أُخَر لتسمية ما محل المعنى الحقيقي؛ وذلك عن طريق علاقة التشابه التي يمكننا استنتاجها من خلال السياقات اللغوية والاستنتاجات الذهنية وآليات فهم ما وراء النصوص دلاليًّا.

يعرف (سيزار دومارسيه Dumarsais) الاستعارة على أنَّها "صورة يتم من خلالها استبدال المعنى الحقيقى لكلمة ما بمعنى آخر لا يتوافق معه إلا بفضل التشابه الذي لا يتم إلا في الذهن"(٧).

تُدرَجُ الاستعارة في الدراسات البلاغية التراثية الفرنسية ضمن الصنوف المجازية" أي أن الكلمة المستعملة في الاستعارة تأخذ معنى مغايرًا لما وضعت له في الحقيقة لوجود علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وهذا المفهوم يشترك فيه كل أنواع المجاز"(٨). غير أن الصورة الاستعارية تتميز عن المجازات الأخرى بعلاقات التشابه بين الكلمة التي تحمل المعنى المجازي (المستعار) والمادة التي تمثلها (المستعار له).

أما بيير فونتانيى (P. Fontanier) فيجعل الاستعارة ضمن ما أطلق عليه "المجازات بالتشابه"(٩) بل يجعلها تتسع لتشمل كل أصناف المفردات، كالاسم والنعت والفعل والظرف،... وكذلك حاول فونتانيي تصنيف مختلف الاستعارات حسب مرجعية الأشياء؛ ليصل إلى نتيجة مُؤدَّاها: أنَّ كلَّ الأشياء العادية التي تحصل في الذهن سواء مادية أو معنوية يمكنها أن تنتج استعارات.

وحسب فونتانيي فإنَّ كلَّ استعارة تتشكل بنيتها من علاقة تشابه تنتج من الصفة المشتركة بين الشيئ المانح للصفة والشيئ الآخذ لهذه الصفة، وحسب هذا العالم البلاغي تشمل الاستعارة كل فئات الكلمات التي يمكن توظيفها توظيفًا استعاريًّا.

٤. حجاجية الاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني:

تتحدد القوة الحجاجية للاستعارة عند الجرجاني انبناءًا على مقدِّمتين:

أوَّلهما: خصوصية المفهوم الاستعاري الذي يرجع إلى فعالية التأثير وإعمال الفكر وتوظيف المدارك العقلية، يقول عبد القاهر الجرجاني: "أما الاستعارة، فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول. وتستفتي فيه الأفهام، والأذهان، لا الأسماع والآذان"(١٠).

ثانيهما: التصنيف الذي أقامه عبد القاهر الجرجاني للاستعارة على اعتبار مبدأ الإفادة الذي يتصل بشكل مباشر بتحقيق الهدف الحجاجي من توظيفاتها في النصوص، "فهي أمد ميدانًا، أشد افتنانًا، أعجب حسنًا وإحسانًا وأوسع سعةً وأبعد غوصا، وأذهب نجدًا.....وأملأ بكل ما يملا صدرًا، ويمتع عقلًا، ويؤنس نفسًا،ويوفر أنسًا...."(١١)

يُؤسِّسُ عبد القاهر الجرجاني للأصول المفاهيمية (لمبدأ الاحتمالية في الذهن) الذي يفرق من خلاله بين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة على أساس ضرورة توفُّر محامل دلالية تحقق مبدأ التأثير على النفس وإمتاع العقل في الوقت

ذاته.

٥. مبدأ الاحتمالية في تكوين صورة ذهنية للاستعارة الحجاجية:

يقول عبد القاهر الجرجاني: "....أنك إذا قلت: "رأيت أسدًا"، فقد ادعيت في إنسان أنه أسد، وجعلته إياه، ولا يكون الإنسان أسدًا. وإذا قلت: "أصبحت بيد الشمال زمامها"، فقد ادعيت أنَّ للشمال يدًا، ومعلوم أنه لا يكون للريح يد..."(١٢)،من خلال النص ترصد الدراسة ثلاث صور احتمالية:

(أ)- إذا+ قُلت... ← مُحققة الأثر في تكوين الاستعارة، (احتمال تحقُّق الأسديَّة في هذا الذي رأيْتهُ).

(ب)- إذا لم+ تقل... ← غير متحققة الأثر في تكوين الاستعارة، (إسقاط تحقُّق الأسدية في ذات المثال وعدم تحقُّق الأسدية في المرئي).

(ج)- إذا + قلت + قرينة تتحقق ← (إدراكية الاستعارة وتحقُّق فعالية الحجاج).

تتحقق المحامل الدلالية للأسدية حسب ما يستقر في ذهن الرائي للمرئي، فلو رآه الرائي طبقًا للمعتقدات والتراكم المعرفي والثقافي؛ وبذلك تتمثل الاستعارة الحجاجية عند الرائي الأول (أ) عن طريق المطابقة التي تحدث في ذهنه.

- ففي (رأيت أسدًا) تتحقق قوة الإقناع من خلال انتقال الرائي من المعنى الظاهر لسمات الأسد العينية إلى المعاني المجازية المتمثلة في الشجاعة، الإقدام..... عما إذا قال المتحدث (رأيت رجلاً شجاعًا) التي تتوافق مع الرجال الشجعان، ولكنها لا تحدث نفس الأثر الحجاجي الإقناعي عنها لو قلت: (رأيت أسدًا)؛ لأنه يتمثل صورة الأسد الكلية (ليست الشجاعة وحدها وإنما مركزية الشجاعة مضافًا إليها + الافتراس + الوحشية + القوة الخارقة + الإقدام +....) ← (صورة مؤثِّرة ومخيفة).

(ولا يكون الإنسان أسدًا) يبني الجرجاني أركان الحجاج ومفهومه في نصف القول الذي يحدد الصورة الذهنية لمن يرى المرئي يتشابه مع الأسد ولا يكون الإنسان أسدًا في الحقيقة، في الإطلاق، بهذه العبارة يسقط الجرجاني الحجاجية عن ذات المثال (الرائي الذي لا يرى في المرئي أنه يتماثل مع الأسد من حيث النظم، (رأيت أسدًا) وهو لا يكون أسدًا، فهي لاتحدث أثرًا كما هو في الحقيقة؛ ولذلك يلزمنا ملحظ آخر يثمثل في إيجاد بنى تركيبية تُشكِّلُ (الاعتراض) أو (التعارض).

تسقط حجاجية الاستعارة عن دلالاتها لدى الرائي غير المقتنع بأنَّ الداخل ليس بأسد فهو لا يحدث الأثر بمجرد إنجاز القول لدى مجموع المستمعين على ما قاله سيبويه في (صحة الكلام واستقامته) "فمنه صحيح حسن، وحسن مستقيم، ومحال، وكذب،..." فهو كلام حسن نحوي، لكنه لا يستقيم دلاليًّا لدى الرائي الثاني الذي لا يراه أسدًا على اعتبار أن الأثر الدلالي لإنجاز القول غير متحقق؛ فالإنسان لا يطابق الأسد ولا تتحقق فيه معاني الأسد (فهو غير مستقيم دلاليًّا).

- الرائي (ب) حسب مبدأ الاحتمالية: تتهدم الحجاجية لدى الرائي الثاني.

- الرائي (ج) وهنا لابد أن نبحث عن قرائن جديدة لتتحقق تكاملية الصورة الحجاجية في الذهن في المثال (رأيت أسدًا) عن طريق إضافة قرائن مثل: (الرسم، الموسيقى،...) ويشتغل علم اللسان الإدراكي على إضافة قرينة من شأنها تحقيق إنجازيَّة الاستعارة، وذلك في مثال: (رأيتُ أسدًا) يمكننا تفعيل إنجازيته وفعاليته الحجاجية إذا كان لدينا إنسان خارق للعادة بالفعل، قد صارع أسدًا وانتصر عليه، سحب سيارة، حمل أطنانًا من الأثقال... في هذه الصورة يقتنع الرائي بأن المرئي يماثل الأسد أو يفوقه في القوة أو يتغلب عليه في استعارة حية أمام الرائي، هنا تتحقق حجاجية الاستعارة لدى السامع وتستقر فعالية الصورة (رأيت أسدًا)...

تأسيسًا على التحليلات السابقة لنصوص الجرجاني تتحدد المفاهيم الأساسية لحجاجية الاستعارة من حيث: (إجراءاتها، تشكلُّها، فعاليتها).

٦. القوَّة الحجاجية لمفهوم الاستعارة عند ميشال لوجوارن:

يُقدِّم البحث مفاهيم لوجوارن لحجاجية الاستعاره وفقًا للمضمون العلمي لأطروحته (الاستعارة والحجاج)

Le Guern Michel La métaphore et Largumentation ""Largumentation، lyon: presses universitaires de lyon، ١٩٨١، PP٧٤-٦٥-

ينبغى التأكيد فى البداية على المنهجية العلمية للمؤلف (ميشال لوجوارن) التي تتمركز حول إمكانية إعادة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

توظيف المفاهيم القديمة وإعادة تقديمها مرة أخرى في إطار الرؤى والنظريات الفكرية الحداثية في قراءة النصوص.

ينطلق لوجوارن من التصورات البلاغية الكلاسيكية المتمثلة في(١٣): أوّلاً: تحديد أرسطو لماهية البلاغة أو الخطابة على أنها: فن الإقناع. ثانيًا: تحديد وظائف اللغة الثلاث كما هي في البلاغة اللاتينية (الإخبار، الإمتاع، الإقناع) وتجعل البلاغة متعة المخاطَب محصورة في الإخبار والإقناع(١٤).ثالثًا: يحدد الدور الحجاجي للاستعارة اعتمادًا على السمات الدلالية التي تتشكل في الاستعمالات الاستعارية للمفردة، وتحقق لها قوة حجاجية أكثر من الاستعمالات الحقيقية لنفس المفردة.

تشتغل الدراسة على بعض الأمثلة الداالة الواردة عند لوجوارن:

(أ) مفردة (حمار) إذا استخدمت للدلالة على حيوان طويل الأذنين، نهَّاق فهي لا تؤدي أثرًا حجاجيًّا.

(ب) مفردة (حمار) إذا استخدمت للدلالة على شخص هنا تحقق أثرًا حجاجيًّا.

ففي الحالة الأولى ترتبط السمات (بليد، عنيد، غبي، صبور،...) مع عدد من السمات الدلالية الأخرى المشتركة لوصف هذا الكائن الغير بشري الحقيقي الموسوم بالحمار، أما في الحالة الثانية إذا ما استخدمت مفردة حمار في معناها المجازي الاستعاري فإنَّ السمتين (بليد،عنيد، غبي،...) توجهان الانتباه وتحدث تمركزًا تجاه هاتين السمتين وهو ما أطلق عليه (لوجوارن) "التَّخيُّر الدلالي للسمات" الذي ينبني على أساسه الدور الحجاجي للاستعارة، فمثلاً إذا قلنا:

(أ) زيد بليد وعنيد.

(ب) زيد حمار.

فإننا من الممكن أن ندحض ونرد على القول الأول ونسقط سماته الدلالية؛ لأن الحكم صريح ومباشر على لسان المتكلم، لكننا في المثال الثاني فإن الحكم من استنتاج المخاطَب ونتيجة لفهمه وتأويله؛ فالاستعارة الحجاجية هي أقرب للفهم ولكنها صعبة في التحليل وبهذه الصعوبة فإن دحض التراكيب الاستعارية أمر ليس باليسير ومن هنا تتحقق وتزيد قوة الاستعارة الحجاجية لما تمتلكه من خاصية "تخيُّر السمات الدلالية" حسب مفاهيم لوجوارن.

لم يبعد لوجوارن كثيرًا عن هدف الاستعارة من منظور البلاغة الفرنسية في عصرها الكلاسيكي التي تتبنى أصولها على قواعد البلاغة اللاتينية،التي تهدف إلى الإقناع كما رسَّخ لها أرسطو؛ ولذا فمفهوم الاستعارة حسب (لوجوارن) في مدونته (الاستعارة والحجاج) « La métaphore et Largumentation » يتأسَّس على أنَّها: وسيلة للإقناع وأن قوَّتها الحجاجيَّة تتشكل من استثمار البنيات الدلالية للغة وتوظيفها في عملية الإقناع.

الخلاصة والتوصيات:

- التأكيد على الأبعاد الحجاجية في الدرس البلاغي العربي القديم وبخاصة عند عبد القاهر الجرجاني.
- إعادة توظيف المصطلح الاستعاري ومفهومه ليتسع ويشمل الدلالات الجديدة في ضوء تنُّوع النصوص القديمة والحديثة.
- توصي الدراسة بإجراء أبحاث مماثلة وربما أكثر توسُّعًا (رسائل علمية) تتخصص في مقام تحليل المفاهيم البلاغية الأخرى (الأساليب الإنشائية، المجاز المرسل، الأدوات اللغوية).

أهم المصادر والمراجع:

أولاً: المراجع العربية:

- ابن منظور: لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- بسام بركة: التحليل الدلالي للصور البيانية عند ميشال لوغوارن، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٤٨/٤٩، كانون الأول/شباط ١٩٩٨م، مركز الإنماء القومي، بيروت.
- الجرجاني (عبد القاهر):
- دلائل الإعجاز: قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت).
- أسرار البلاغة: صححها على نسخة الأستاذ الإمام محمد عبده، وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان،الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- الرماني: النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، تحقيق محمد خلف الله، دكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر–الطبعة الثانية – ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م. وأيضًا الطبعة الثالثة، (د.ت).
- القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، ج١، دار الكتب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت– لبنان، الطبعة السادسة ١٩٨٥م – ١٤٠٥هـ.
- محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان– الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- المنجد في اللغة، الطبعة التاسعة والثلاثون بيروت-لبنان.
- ميشيل لوجورن، الاستعارة والحجاج، تعريب الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، العدد رقم (٤) ١-مايو ١٩٩١م،المغرب.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- Dumarsais (César). Les tropes. Genève. Slatkine Reprints. ١٩٦٧.
- Fontanier (Pierre). Les figures de discours. Paris. Flammarion١٩٧٧.
- Le Guern Michel:Largumentation. lyon: presses universitaires de lyon.١٩٨١.PP٧٤-٦٥-.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الهوامش والتعليقات

(١) راجع في الدلالة اللغوية ل(عار) االبن منظور: معجم لسان العرب، مادة (عار)، وراجع أيضًا المنجد في اللغة ص ٥٣٧.

(٢) القاضي الجرجاني: الرسالة، ص ١٤١.

(٣) يراجع في اتفاق جمهور البلاغيين على أن الاستعارة قائمة على التشبيه، الرازي، نهاية الإيجاز، ص ٨٢، ابن الأثير، المثل السائر ج١، ص ٣٦٤، القزويني: الإيضاح، ص ٢٧٨.

(٤) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٣.

(٥) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص٢٩.

(٦) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٣٦، ٤٣٧.

(١٠) C. Dumarsais، les tropes، p. ١٥٥

النص الفرنسي:

"La métaphore، écrit-il، est une figure par laquelle on transporte pour ainsi dire la signification propre dun mot à une autre signification qui ne lui convient quen vertu dune comparaison qui est dans lesprit "

(١١) Ibid، p. ١٥٧.

النص الفرنسي:

"Le mot dont on se sert dans la métaphore est pris dans un autre sens que le sens propre ; il est pour ainsi dire، dans une demeure empruntée، dit un ancien: ce qui est commun à tous les tropes ".

(١٢) P. Fontanier، les figures du discours. ، p. ٩٩:١٠١

النص الفرنسي:

Quant à Pierre Fontanier، il inclut la métaphore dans ce quil appelle " les tropes par resemblance "

١٠)) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ٢٠.

(١١) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ٤٢ وما بعدها في حديث الجرجاني عن خصائص الاستعارة.

١٢)) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص، ٦٧.

(١٣) راجع في المضمون العلمي لمفهوم حجاجية الاستعارة عند لوجوارن: الاستعارة والحجاج، تعريب الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة،العدد رقم (٤) ١-مايو ١٩٩١م،المغرب ص ٨٥: ٩٠.وراجع أيضًا:

Le Guern Michel:Largumentation، lyon: presses universitaires de lyon، ١٩٨١، PP٧٤-٦٥-.

(١٤)ميشيل لوجورن، الاستعارة والحجاج، تعريب الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، العدد رقم (٤) ١-مايو ١٩٩١م، المغرب ص ٨٨ وما بعدها.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2